

في طريق نهضة عربية جديدة

وأذكر من تلك القيم : الاستقلال ، والعدالة ، والحرية ... فهل يجوز للكاتب العربي أن لا يلبي دعوة النضال ، وأن لا يسلك سلوك المناضل في حياته الخاصة وفي آثاره الأدبية ، بعدما أصبح واضحاً لكل ذي بصيرة ، أن النضال من أهم العوامل التي يمكن بها أن ينهض العالم العربي نهضة ميمونة ؟

ان النضال يعني - أول ما يعني - العمل ، والترفع عن النوائس ، والجدود بالنفس ، والشجاعة ، والمثابرة . فالنضال يقتضي من المرء أن يوفق بين القول والعمل ، وأن يجعل كلا منهما في خدمة المثل العليا . ولا يخفى على أحد ان العالم العربي لا يزال يعاني من هذنا الجرح الاليم الذي يتمثل في فلسطين المفتتصة . وقد أحسنتم الاختيار حين أدرجتم موضوع : « قضية فلسطين وأثرها في الادب العربي الحديث » ، كنقطة ثانية في جدول الاعمال . ولعل فصدكم من ذلك هو الحرص على تحاشي المناقشات التجريديسة في فضايا الادب . وسوف يتضح لكم ، عندما تناولون هذه النقطة الثانية ، فيما اذا كانت المشكلات المنبثقة عن مناقشة النقطة الأولى ، قد عولجت معالجة صحيحة . أما النقطة الثالثة والاخيرة من جدول الاعمال - وهي تتعلق بموضوع « الطفل في الادب العربي » - فهي لا تخلو من أهمية ، لأنها ستكون منطلقاً للحديث عن موضوعات هامة - كما سوف نرى - إذ لا بد - في معالجتنا لقضايا الادب - من أن ننظر اليها نظرة تاريخية ، وأن ندرسها دراسة تحليلية اجتماعية .

ليس الهدف آذن ، من اقامة هذا المؤتمر ، هو تقديم عرض شامل للادب العربي المعاصر ، لا ... ولا ذكر المنجزات في حقل الادب . فكلنا نعلم أن فنون الادب العربي ازدهرت ازدهاراً كبيراً خلال القرن المنصرم ، أي منذ بداية عصر النهضة ... على ان القضايا التي سوف تتركز عليها مناقشاتكم - وأعني بها قضايا التحرير والثورة الاجتماعية في الادب العربي الحديث - تجعلنا نتساءل : ألا ينبغي أن يكون تطور الادب العربي والثقافة العربية ، مماثلاً وموالياً لتطور قضايا التحرير والثورة الاجتماعية ؟ والشئ الذي يبعثنا الى هذا الاعتقاد ، هو ان وضع الادب والاديب والكتاب ، يندرج اليوم في اطار جديد يتميز على الاخص بتصفية الاستعمار ، والسعي الحثيث لتحقيق العدالة الاجتماعية ، ونشر التعليم على أوسع نطاق ، وبروز العالم العربي على مسرح الحياة الدولية .

وهل هناك من ينازع اليوم في ان الثقافة العربية لا ينبغي أن تقتنع - كما كان الشأن في الماضي - بالالتفات الى الجد الفابر ، والتفني

انه لشرف كبير (١) أن تتاح لي الفرصة لتقديم التحية الى المشاركين في مؤتمر الابداء العرب العاشر ، باسم الرئيس هوارى بومدين الذي يتمنى لكم كل نجاح وتوفيق ، وباسم جبهة التحرير الوطني الجزائري ، وباسم مجلس الثورة والحكومة ، وباسم الشعب الجزائري . واني لارجو لكم اقامة طيبة في هذا البلد الذي يستقبلكم استقبال الاخ لايه .

هذ عهد ليس بالبعيد ، أراد الاستعمار أن يسكت أصوات الوطنيين الجزائريين الذين كانوا دائماً ينادون بأن « اللغة العربية هي لغتنا » ، فما كان منه الا ان اتخذ قراراً بوجوب اعتبار اللغة العربية في الجزائر لغة أجنبية . وكانى بكم ، إذ تعقدون لأول مرة مؤتمركم هذا في ارض الجزائر المستقلة ، تؤدون واجب التكريم نحو الشهداء الذين جادوا بأرواحهم الطاهرة ، لكي تستعيد اللغة العربية مكانتها كلفة قومية في بلادنا . واسمحوا لي أن أضيف بأن انعقاد هذا المؤتمر في قصر الامم لا يخلو من دلالة . فهذا المكان الذي تجتمعون فيه قد احتضن في السنوات الاخيرة مؤتمرات كانت مخصصة للكفاح الذي تخوضه الدول العربية والاقطار الأفريقية وبلدان العالم الثالث ، على الصعيد السياسي والاقتصادي . ان اجتماعكم في هذا المكان - والثورة الجزائرية في مسيرتها المظفرة خير شاهد على ما نقول - ان اجتماعكم في هذا المكان يعني ان الكفاح على الصعيد الثقافي لا ينفصل عن الاشكال الاخرى من الكفاح في سبيل استقلال الوطن ، وتنمية البلاد ، وتحقيق نظام بين الدول يسوده العدل والانصاف . ان رفض الهيمنة يشمل ايضا رفض الهيمنة الثقافية . فهل يستغرب بعد هذا ان وجدنا ان الدول التي تجمعت فيها ثروات العالم ، هي نفس الدول التي تنتج اربعة أخماس ما يطبع من كتب في العالم .

ان جدول أعمال هذا المؤتمر يعكس الصفة الشمولية التي يتميز بها الكفاح في الوطن العربي . فالموضوع الاول منه يتعلق « بالنضال والثورات في الادب العربي قديماً وحديثاً » . ولا شك انكم في هذا الاطار ، سوف تدرسون بشكل خاص ما للنضال من دور كبير في هذا الشأن ، لان النضال ، بالفعل ، عنصر لا غنى عنه للسبيل الى الامام في طريق التقدم والتحرر . ان النضال يستمد قوته من الشعور بأن المصلحة العامة ينبغي أن تغلب على المصلحة الخاصة ، وانه توجد قيم مقدسة لا بد من احترامها والسداف عنها في كل زمان ومكان ،

(٢) الكلمة التي القاها وزير الاعلام والثقافة الجزائري في الجلسة الافتتاحية لمؤتمر الابداء العرب العاشر في الجزائر .

أردنا أن نكون في مستوى المسؤولية التاريخية الملقاة على عاتقنا ، وإذا أردنا أن نخدم ثقافتنا القومية بطريقة إيجابية ، فما علينا إلا أن نعمل بجهد ونشاط ، لاعداد المستقبل المنشود .

وهنا أيضا لا بد من الإشارة الى خطأ جسيم كثيرا ما نجم عنه سوء التفاهم بين المثقفين . فمن الآراء الشائعة التي تصادفها بين الحين والآخر في الإنتاج الفكري العربي ، الاعتقاد بأن كل واحد منا حر تماما في تفكيره ، كما لو أن الدماغ عبارة عن قطعة من الشمع الرخو الذي تستطيع أن تطبع عليه ما تشاء ، أو تمحو مما طبعتسه ما تشاء . . . وبما أن المطلوب منا هو المحافظة على التراث ، بعد احصاء ما خلفه الأولون من آثار ، وبما أن المطلوب منا أيضا هو انتاج طرق من طرق التنمية من أجل اعداد المستقبل المنشود ، لذلك يتصور البعض بأننا نحسن صنعا إذا نحن انتقينا لانفسنا بعض الامور الصالحة من هنا وهناك ، بدون ان نأخذ بعين الاعتبار ما كنت قد اشرت اليه في بداية هذه الكلمة ، أعني الحقائق التاريخية والاجتماعية ، والاقتصادية ، والنفسية .

ولعل أفضل طريقة لتفادي هذا الخطأ الفاحش هو ان نحاول اعادة التوازن المختل في الانتاج الفكري العربي .

ولقد تميز عصر النهضة الاولى بازدهار الانتاج الادبي ، ولا يزال هذا النوع من الانتاج يحرز قصب السبق ، لان المؤلفات في العلوم المحضة ، لا تمثل الا ٥ ٪ من مجموع العناوين التي تصدر في العالم العربي . ولعله آن الاوان ان نقوم بتنميط وتعزيز التجربة التسمي اخذت بعض الافطار العربية تسمى لانجازها ، وأعني بذلك تنظيم البحث العلمي ، وتنميطه ، وتشجيع الادباء على الانتاج في ميدان العلوم الانسانية . ومن المؤسف ان عددا قليلا من الطلبة العرب يتحمل مشاق البحث العلمي الرصين . ان الواحد منهم اذا أراد أن يخوض هذا الميدان ، فانه في أكثر الاحيان يهاجر الى الخارج ، ويقوم ببحثه في بيئة لها قيمها الخاصة ، وفي وسط اجنبي مقطوع عن واقع بلاده . . على اننا تستنتي من حكمنا هذا بعض الافئذ من ذوي النبوغ . ولكنهم بالفعل أفئذ ، أو بالاحرى شواذ . ان النهضة الحقيقية سوف تتحقق يوم يتوصل عدد كبير من رجال الفكر المستقلين في حقل العلوم والاداب ، الى المستوى المطلوب في المعرفة ، والى اكتساب عادات في التفكير لا ترسخ في النفس الا عن طريق الممارسة الطويلة للبحث العلمي .

ولقد يتساءل البعض عما اذا كان من حق الادب أن يرقى الى مستوى هذا المستوى من الطموح ، وعما اذا كان في مقدور الاديب حقا أن ينجز عملا من شأنه أن يحدث هذا التحول في النظرة الى ذاته ، والى بني جنسه ، والى الكائنات . ولا شك ان وجودكم في هذا المكان ، وما اندرجتموه من موضوعات في جدول أعمالكم ، يعطيان لنا الجواب الشافي الكافي : فقد اطرحتم أضفان الاحلام ، وتحاشيتم المشكلات المزيفة المتمثلة في بعض الآراء التي اكل عليها الدهر وشرب : كالقول بأن الكتابة غاية في حد ذاتها ، وان الكاتب الحق لا يجدر به ان يهتم بالوقائع اليومية ، وان الانسان اذا أراد ان يدع فعلية أن يتسزل الناس ، وان الاثر الادبي يقترب من الكمال على قدر ما ينطوي الكاتب على ذاته ، وانه لا بد من فصل الشكل عن المضمون . . . وما الى ذلك من الآراء الباطلة .

ولا يخفى على أمثالكم من الادباء اللبابين أن كل ثقافة تتضمن في ظاهرها أو في باطنها فكرا عقائديا ، وانه من الخطأ الفصل بين النشاط الادبي والنضال السياسي ، لان الاديب ينبغي ان يعيش في وسط الشعب ، كما يعيش السمك في وسط الماء . فالكاتب لا يستطيع ،

بالتراث الزاهر ، والتطلع الى مستقبل نحسبه حافلا بالانتمسارات الراقية ، وان هو في الواقع الاسراب . فمن العبث أن نتسلى عن خطنا العائر ، بذكر المجد الغابر ، أو باتخاذ موقف سلبي من قضايا العصر ، وانتظار ما عسى أن يأتي به المستقبل . . . وما المستقبل في الحقيقة الا ما نصنعه بسواعدا وأيدينا ، وما ننجزه من عمل في هذه الحياة . فالهم اذن هو التصميم والجهد المتواصل الذي لا يتوانسى على مر الايام . ولا شك ان تطور القضية الفلسطينية خلال السنوات الاخيرة يقدم لنا البرهان الساطع على ذلك . فقد استطاع العرب - بعدما تعلموا الدروس القاسية من حرب جوان (حزيران) ١٩٦٧ - استطاعوا أن يقفوا في وجه الصهيونية وحليفها الامبريالية . . . على ان هناك تحديات اخرى غير التحدي الصهيوني . . . وميادين اخرى للكفاح يمكن أن يخوضها رجال الفكر والادب ، وأعني بذلك المعركة الحاسمة من أجل تنمية الاقطار العربية ، لصالح جميع المواطنين ، لا لصالح طبقة معينة تتمتع بالامتيازات .

ومن الناس من لا يزال في عصرنا هذا ، يتحدث أو يكتب عن تنمية الاقطار العربية علميا وفنيا وسياسيا وثقافيا ، بنفس العبارات وبنفس الطريقة التي كانت تطرح بها هذه المشكلة وتناقش منذ حوالي قرن ، في عصر النهضة . وكانت الاساطير المثقفة آنذاك ناعش هذه المشكلة على أساس الرجوع دائما الى ما حققه القرب الذي كانت بيده السيطرة تقديما ورقيا . ولا شك ان كل واحد منا يتذكر أو يعرف جيدا الكتب التي وضعها أولئك المؤلفون ومن أتى بعدهم . وقد برز فيها اتجاهان رئيسيان يختلفان الى حد ما باختلاف المؤلف ، والوسط الذي عاش فيه ، والتجربة التي عاهاها . فهناك اتجاه انتقائي قد أخذ من القرب بعض البادئ : القومية ، والتفنية ، والنهسج العقلاني ، والنظام البرلاني البورجوازي . . . والاتجاه الثاني هو الاتجاه السلفي الذي كان له اثر عميق في الدعوة للرجوع الى الاسلام الاصيل . . . أما اليوم ، فان الفكر الثوري ، أو على الاقل ، الفكر الذي ربط مصيره بمصير شعبه ، ليربأ بنفسه من أن يطرح المشكلة بنفس هذه العبارات ، وأن يظل دائما متأرجحا بين هذين الاتجاهين ، لا يدري الى أي منهما يميل .

اننا نعلم اليوم بأن الحضارة غير محصورة في مسكان واحد من العالم ، وان اتخاذ القرارات لا تنفرد به جهة واحدة ، وان طريق التنمية ليس واحدا ، بل توجد طرق عديدة يمكن للدول ان تنتهجها . ان البشرية تسير اليوم نحو عالم يريد أن يحقق الوحدة في التنوع ، ولذلك فان المنطقة العربية ينبغي أن تصبح جزءا من هذا الكل المتكامل ، وان تحافظ داخل هذا الكل على خصائصها ، كغيرها من المناطق الثقافية الاخرى . ان القلق الذي كان يساور بعض المفكرين ، بسبب تخوفهم من العواقب الوخيمة الناجمة عن مسيطرة العصر ، وكذلك بسبب تخوفهم من الاستلاب المتمثل في تفريب أنماط حياتنا . . . هذا القلق الذي كان يساور بعض المفكرين لم يعد له مبرر ، خاصة اذا عرفوا أن المطلوب منهم ليس هو التخلي عن أصالتهم ، ليندموا بها ثمن التطور والتقدم ، بل المطلوب منهم اليوم هو أن يعملوا ، وأن يجندوا في العمل ، لكي يعطوا شكلا جديدا للثقافة العربية التي هي ثقافتكم الاصلية . فلا يجدر بهم اليوم أن يرضوا بالتبعية والتقليد ، بل يجب عليهم أن يبدعوا وينشئوا .

ان الزمان ينقضي الى غير ما رجعة ، كالنهر الذي يتدفق بدون انقطاع . . . وكما أنك لا تستطيع أن تظمر بندق مرتين في ماء واحد من النهر ، فكذلك ليس في مقدور أحد ان يرجع القهقري في مسيرة الزمان ، أو يوقف ديمومته . فالرجوع الصحيح الى الاصل لا يعني ان نعيش كما كان يعيش اجدادنا ، بل المقصود بذلك هو ربط الحاضر بالماضي ربطا متكاملا ، مع أخذ الواقع الاجتماعي بعين الاعتبار . فسادا

مزيدا من المساعدة للاشخاص القلائل ، وللهيئات التي تحساول أن تعرف بأدبنا في البلدان الغربية على الخصوص .

لقد أصبح المجال اليوم أوسع من ذي قبل لكي يحقق الصاليم العربي نهضة جديدة مرموقة . وبالفعل ، فقد استطاعت بغض الافطار العربية أن تضع استراتيجية للتنمية ، وهذه الاستراتيجية أخصت بتحقيق « من الشعب والى الشعب » ، كما يقسول شعار الثورة الجزائرية . ان الانجازات الكبرى التي حصلت في ميدان تعليم البنين والبنات ، وتكوين الاطارات على جميع المستويات ، لهي بمثابة ثورة صامتة . ولكن هذه الشبيبة المتعطشة للمعرفة ، في حاجة الى تعليم عصري متجرد من الخرافات ، وممزق بالبحث العلمي الرصين . ومن جهة اخرى ، فان وسائل الاعلام الجماهيري لا تفنأ تتطور . وهنسا يبرز الدور الكبير الذي يجب أن يقوم به رجال الثقافة ، وتبرز كذلك مسؤوليتهم العظمى امام التاريخ .

انني أتمنى أن يكون مؤتمر الادباء العاشر مرحلة هامة في هذا الطريق الشاق الذي لا بد من أن نسير فيه الى النهاية ، لكي ننظر الى ثقافتنا وتاريخنا نظرة جديدة . وعندما نصل الى نهاية هذا الطاف ، فان العالم العربي سوف يكون مثالا يقتدى في حضارته المحافظة على توازنها ، بحيث أن الازدهار الاقتصادي الذي سوف يتحقق باذن الله ، لن يؤدي الى مسخ الثقافة ، ولن يلحق أي ضرر بشخصية الانسان . فبمثل هذه الثقافة الجديدة نستطيع ان نؤكسد أصلتنا وتمسكتنا بتاريخنا ، وهذا هو الشرط لاستئناف مسيرتنا الى الامام ، واتساع الحضارة العربية الاسلامية .

بارادته وحدها ، أن يؤثر على قيمة أثره الادبي . أما الاسلوب ، فليس في الواقع الا وسيلة للتعبير عن شخصية الكاتب . وبكلمة مختصرة ، فلا يوجد أي تعارض بين الانخراط في الحركة النضالية ، وبين ممارسة النشاط الادبي .

ان اقل ما يمكن ان ننتظره من الاديب العربي ، هو أن لا يجعل الناس بكتاباتته يتهربون من مسؤولياتهم ، ويستسلمون للواقع . فيواسطة الاثر الادبي يمكن توعية الناس بمشكلات الحياة وحفائنها ، ولذلك فان الاديب اقدر على التأثير في النفوس ممن يحلل المشكلات والحفائق تحليلا تجريديا ، أو من يقوم بالحماية لنشر بعض الافكار والمبادئ . والاثر الادبي بعد هذا من أحسن الوسائل لشحذ القرائح ، وتنمية الفكر النقدي ، اذ بدون ذلك تقع في الجمود والتبعية ، وقد عاينا منهما ما عاينا .

ان المناقشات حول اختيار الطريق الأنسب لتحقيق التطور ، تفضي في آخر الامر الى تبادل الرأي حول اختيار الحضارة التي نانسنا . فهل يجدر بالكتاب - وهم من رجال الثقافة بالاصالة - هل يجدر بهم أن يضمنوا بارانهم السديدة في هذا الموضوع الخطير ؟ وبالإضافة الى هذا ، فلا بد من الإشارة الى ان الانتاج الادبي العربي لا ينبغي ان يكون محصورا في نطاق الوطن العربي . فلا شك أننا ، اذا عملنا من أجل تعريف الاجانب بانارنا الادبية عن طريق الترجمة ، فسوف نساهم بذلك في احلال العالم العربي المحل اللائق به بيسن الامم . ولذلك فمن واجبتنا أن نولي مزيدا من الاهتمام ، وان نقدم

الفكر العربي

في معركة النهضة

تأليف الدكتور أنور عبدالمك

« هذا الكتاب موجه في المقام الاول الى قطاع محدد من جمهور القراء في العالم العربي ، هو قطاع الجيل الجديد من شبابنا العربي في كل مكان ، شباب الريف والمدن ، شباب الفكر والعمل ، شباب الانتاج والعلم والسلاح . ربما يجد فيه بعض رجال الفكر والعمل من جيلنا - الذي كان « على موعد مع القدر » - اسهاما في نهضتنا الحضارية . نقول « البعض » ، اذ ان منهج التنقيب عن مستقبل الفكر العربي في عصر النهضة الحضارية ، وهو المنهج النابع من تغيير الاطار المعرفي - وهو جوهر عملنا النظري القائم منذ ١٩٥٩ ، والمرتبب ، الا وهو تجديد الفلسفة الاجتماعية على ضوء تفاعل حضارات الشرق والغرب - نقول : ان هذا المنهج وذلك التجديد النظري يمتان على وجه التحديد الى مرحلة الثورة الوطنية التقدمية وغابتها النهضة الحضارية ، وهي مرحلة جديدة حقا على المفاهيم والتقاليد الفكرية الموروثة للاجيال السابقة من حركتنا الوطنية المتأقلمة في اغلب الاحيان في اجواء ثقافية - فكرية استشراقية ، اواممية ، او سلفية . وهو كتاب يتصدى للإجابة على سؤال مركزي في تحركنا العربي المعاصر ، الا وهو : كيف يمكن ان نقيم علاقة جذرية ، عضوية ، متصلة ، بين تحركنا الوطني التحرري المتجه الى الثورة الاجتماعية والهدف الاشتراكي من ناحية ، وبين اقامة فلسفة تواكب هذا التحرك الذي فرض نفسه على العالم أجمع ، تكون على وجه التحديد ، فلسفة النهضة الحضارية في مصر والعالم العربي ؟ » .

- من المقدمة -

الثن ٨٥. قرشا لبنانيا

منشورات دار الآداب